الدرس الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

لماذا تم اختيار كتاب ابن كثير -رحمه الله- في السِّيرة النَّبويَّة، وهو الفصول في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم؟

اخترناه لأسباب:

☑ **أولًا:** لجلالة مؤلفه -رحمه الله- وهو الحافظ ابن كثير، وهو العلم المشهور صاحب التفسير المشهور، الذي طبَّقت شهرته الآفاق، وهو من علماء القرن الثامن، توفي سنة أربعة وسبعين وسبعمائة -رحمة الله عليه- وهو من مشاهير تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمة الله تعالى عليه.

ولأنه -رحمه الله- عالم محقق، فهو لا يسرد الأحداث، ولا يذكرها دون أن يعلق عليها في كثير من الأحيان، وهذه هي الميزة بين العلماء المحققين وبين غيرهم.

☑ **ثانياً:** من مزايا الكتاب الذي معنا، أنه مختصر نسبيًا، لا هو بالطويل المل، ولا هو بالمختصر والقصير الذي أشبه ما يكون بالعناوين الرئيسية.

☑ **ثالثاً:** كثرة الفوائد التي فيه، وتتميز هذه الفوائد بالتحقيق الذي أشرنا إليه، وبيان رأيه في عدد من المسائل بعبارات مختصرة.

☑ **رابعاً:** أنه خصص الثلث الأخير من الكتاب تقريبًا لبيان الخصائص النَّبويَّة، والشمائل المصطفويَّة، وهذا الباب صِلته بالشمائل وصِلته بالسِّيرة ظاهرة؛ لكن أيضًا الفقهاء -رحمهم الله تعالى- يُدخلون بحث الخصائص هنا في الدرس الفقهي؛ لأنه يترتب عليه أحكام فقهيَّة.

✓ فمثلًا: في الطَّهارة العلماء الذين تكلموا في الخصائص، النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لما رأته عائشة قام مرة بعد أن كان نائمًا، فاستغربت أنه لم يتوضأ، قال: **«يا عائشة، إنه تنام عيناي ولا ينام قلبي»** ، وأيضًا في رواية عنده أنه خاطب أم سلمة. إذن من خصائصه أنه لا يجب عليه الوضوء من النوم.

✓ مثال: في مثلًا الصَّلاة، قال النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- كما في الصحيح: **«إني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي»** ، وفي كتاب النكاح مثلًا اختص -عليه الصَّلاة والسَّلام- بعدد من المزايا، فهو يحق له أن يتزوج أكثر من أربع، ولا يحل لأحد أن يتزوج نساءه من بعده.

- المؤلف -رحمه الله- كعادته -أو كعادة غيره من المصنفين- يبدأ بالحمد لله، والصَّلاة على النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- ثم يشير إلى أهمية السِّيرة النَّبويَّة، وأهمية معرفتها لطالب العلم، وقد بيَّن أن سبب تأليفه أنه أحب أن يُعلِّق على السِّيرة النَّبويَّة، وقال: "إنه لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النَّبويَّة، والتَّواريخ الإسلاميَّة، وهي مشتملة على علوم جمَّة، وفوائد مهمَّة، لا يستغنِ عنها عالم، ولا يُعذر في العروِّ منها -يعني أن يكون خاليًا منها- وقد أحببت أن أعلق تذكرة في ذلك، لتكون مدخلًا إليه -مدخلًا إلى الأيام النَّبويَّة- ونموذجًا وعونًا له عليه".
- ثم سرد -رحمه الله- النسب الشريف، والعلماء -رحمهم الله- يعتنون بذكر النسب، لأن الله -عز وجل- اقتضت حكمته أن يكون الأنبياء الذين يُبعثون في أقوامهم في أعلى درجات النسب في أقوامهم، وهذا له حكمة، فإن النفوس جُبلت على تقدير من كانوا عِليَة في أقوامهم، بينما لو كانوا مثلًا من السوقة من الناس، أو من الناس الذين ليس لهم نسب معروف، لربما أول ما يُبدأ فيه بالطعن بالرسالة، يقولون: أصلًا من أنت؟! ثم يبدأ الذين هم أفضل منه في النسب يعارضونه ويقولون: من أنت؟! ونحن نعرف تاريخ أسرتك وهكذا.
- فإذا كان الأنبياء بُعثوا في أقوامهم، في أشرف الأنساب في أقوامهم، قُطع الطريق من هذه الجهة، فيبدأ الحجاج العلمي والعقلي في قبول الرسالة، حتى لا ينشغل الناس بأمور جاهلية، ولهذا مثلًا قريش لما بُعث النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- فيهم ما أحد تكلم في نسبه، وهو من أصولهم، وقد قام النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- كما في حديث واثلة بن الأصقع في صحيح مسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم» -صلوات الله وسلامه عليه- فهو انتقل من اصطفاء إلى اصطفاء.

قال -رحمه الله-: "هو سيد ولد آدم، أبو القاسم محمد، وأحمد".

- وهذه ثبت اسمه في سورة الصف، ﴿يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

قال: "والماحي، الذي يُمحى به الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس، والعاقب الذي ليس بعده نبي، والمقفي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة".

هذه أسماء له صلوات الله وسلامه عليه، أخبر بها عن نفسه.

إذن ما ذكر أولًا كلها أسماء، والشئ إذا عظم وشرف كثرت أسماؤه، ولهذا مثلًا تجد السيف لما كان آلة من أهم الآلات عند العرب، كانت له أسماء كثيرة، السيف، والمهند، والحسام، واليماني إلى غيرها. الأسد نظرًا لكونه أقوى الحيوانات، له عدة أسماء، يقولون أنها بلغت مائة، وهكذا الإنسان الشريف تجد له عدة ألقاب وأسماء.

- قال: "ابن عبد الله، وهو أخو الحارث، والزبير، وحمزة والعباس، ويُكنى أبا الفضل -أبا الفضل كنية أبا العباس- وأبي طالب -يعني أخ لأبي طالب- واسمه عبد مناف، وأبي لهب -يعني هو أخو أبو لهب الذي نزلت فيه السورة المشهورة- واسمه عبد العزى -اسم أبي لهب- وعبد الكعبة، وهو المقوم، وقيل: هما اثنان، وحجل، واسمه المغيرة، وغيداق". ثم سرد إخوانه، صلوات الله وسلامه عليه.

- ثم ذكر بعد هذا: "وصفية وعاتكة -هذه أخواته من النساء- وأروى، وأميمة، وبرة، وأم حكيم، وهي البيضاء، هؤلاء كلهم أولاد عبد المطلب، ولم يؤمن به من أعمامه به إلا العباس وحمزة". أما البقية فمنهم من مات قبل أن يُدرك النبوة، وهم الأكثر، ومنهم من أدركها ولم يؤمن، وعلى رأسهم أبو لهب وأبو طالب.
- هؤلاء كلهم أولاده، ثم بدأ يسرد أسماء وألقاب النَّسبِ الشريف، فبدأ بعبد المطلب، قال: "عبد المطلب، واسمه شيبة الحمد"، إذن عبد المطلب هذا صار اسمًا أو لقب؟ لقب.
- على كل حال قال: "اسمه شيبة الحمد، على الصحيح، ابن هاشم وهو أخو المطلب، وإليهما نسب ذوي القربى".
- ماذا يقصد ابن كثير إليهما نسب ذوي القربى؟ يقصد في باب الزكاة، أو في باب قسمة الأنفال، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الأنفال: 41].

يقول ابن كثير هنا: "إن ذوي القربى يلتقون عند هاشم، فكل من انتسب إلى هاشم فهو من ذوي القربى، ومَن فوق هاشم، من بني نوفل، أو عبد شمس، أو غيرهم، فإنهم لا يدخلون في ذوي القربى".

وهذا له بحث آخر في الزكاة، مَن هو الذي يحرم عليه من آل البيت أخذ الزكاة؟ هم الذين ينتسبون إلى بني هاشم.

- قال: "ابن هشام وهو أخو المطلب، وإليهما -أي إلى عبد المطلب- وإلى هاشم يُنسب ذوي القربى، وعبد شمس ونوفل، أربعتهم أبناء عبد مناف، أخي عبد العزى، وعبد الدار، وعبدٍ، أبناء قصي -واسمه زيد- وهو أخو زهرة ابنا كلاب، أخي تيم، ويقظة أبي مخزون، ثلاثتهم أبناء مرة، أخي عدي، وهصيص أيضًا، وهم أبناء كعب، أخي عامر، وسامة، وخزيمة، وسعد، والحارث، وعوف، كل هؤلاء السبعة أبناء لؤي أخي تيم".
- ثم قال: "تيم الأدرم ابني غالب أخي الحارث، ومحارب بني فهر أخي الحارث، ابني مالك، أخي الصلت، ومخلد بني النضر أخي مالك، وملكان، وعبد مناة، وغيرهم بني كنانة، أسد وأسدة والهون، بني خزيمة، أخي هذيل ابن مدركة".
- ثم سرد إخوانه، ابن إلياس، ثم سرد إخوانه، ابن مضر، ثم سرد إخوانه، ابن نزار، بن معد، بن عدنان.

فلو أردنا أن نسرد النسب الشريف، لقلنا: هو محمد بن عبد الله بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر.

فهر هذا هو الذي عليه اللقب المشهور قريش، كما سيذكره المؤلف بعد قليل، فكل قبائل قريش تلتقي عند فهر هذا، ابن مالك، ابن النضر، ابن كنانة، ابن خزيمة، ابن مدركة، ابن إلياس بن مضر، ابن نزار، ابن معد، ابن عدنان.

- يقول ابن كثير -رحمه الله: "فجميع قبائل العرب ينتسبون إلى مَن ذكرت من أبناء عدنان، وقد بيَّن ذلك الحافظ أبو عمر النمري في كتاب الإنباه بمعرفة قبائل الرواة بيانًا شافيًا".
- ثم قال -هذا الشاهد: "وقريش على قول أكثر أهل النسب هم الذين ينتسبون إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وأنشدوا في ذلك البيت المشهور...".

- ثم ذكر استطرادًا: "إلى أين يلتقي الناس عند قريش".

ولكن أشهر الأقوال هو الذي ذكره أولًا، وهو أن قريشًا عند أكثر أهل النسب ينتسبون إلى فهر.

هذه المعلومة التي أود من الإخوة أن يستحضروها، أما باقي الخلافات تجاوزوها.

- ثم قال -رحمه الله- بعد هذا: "فصل في ذكر نسبه -صلى الله عليه وسلم-، بعد عدنان".
- العلماء كابن حزم وغيره يحكون الإجماع على أن نسبه إلى عدنان متفق عليه، الذي ذكره ابن كثير هذا مُجمع عليه لا خلاف فيه، لكن يقع الخلاف بين أهل السِّيَر فيمن بعد عدنان، وأيضًا هذا من المباحث التي لا ينبغي أن ننشغل بها كثيرًا، ولهذا ابن كثير قال: "فهذا النسب الذي سقناه إلى عدنان، لا مرية فيه ولا نزاع، وهو ثابت بالتواتر والإجماع، وإنما الشأن فيما بعد ذلك، ولكن لا خلاف بين أهل النسب وغيرهم من علماء أهل الكتاب، أن عدنان من ولد إسماعيل"، هذه المعلومة التي انتقل إليها ابن كثير، ولذلك ما انشغل ابن كثير في ما بعد عدنان؛ لأنه لا أثر له يُذكر.
- إذن المعلومة التي نقلنا إليها ابن كثير ما هي؟ أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله، قال: وهو الذبيح على الصحيح من قول الصحابة والأئمة.
- لماذا قال: وهو الصحيح؟

لأن العلماء مختلفون من الذبيح، هل هو إسماعيل -عليه الصَّلاة والسَّلام- أم هو إسحاق -عليه الصَّلاة والسَّلام- وأكثر الصحابة كما ذكر ابن تيمية، وابن القيم في أول زاد المعاد، وها هو ابن كثير يذكره، بل قطع به ابن حزم، وقال: "ولا شك في هذا أنه هو الذبيح، بدليل قوله -تبارك وتعالى- في سورة الصافات، لما جاءت قصة الذبح ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103] إلى آخره، قال الله -عز وجل- بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112]، فالبشارة هذه جاءت بعد قصة الذبيح، مما يدل على أن قصة إسماعيل متقدمة.

- ثم قال: "وقد اختلف في كم أب بينهما، على أقوال"، يعني كم بين النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- وبين إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه الصَّلاة والسَّلام.

يقول: فأكثر ما قيل أربعون، وأقل ما قيل سبعة آباء، وقيل وقيل وقيل، ثم اختلف في أسمائهم، ثم استطرد في هذا كثيرًا، وهذا من الأمثلة التي نمثِّل بها على أنها من المسائل التي لا يضر طالب العلم ألا يحررها تمامًا؛ لأنه لا أثر لها في ما يتعلق بالسُّنَّة أو بالسِّيرة.

- الشاهد أن ابن كثير خلص بعد هذا السرد للخلاف، قال: "فجميع قبائل العرب مجتمعون معه في عدنان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]".

نستفيد فائدة، أن جميع قبائل العرب التي كانت موجودة في الجزيرة العربية عند بعثته -عليه الصَّلاة والسَّلام- تجتمع معه في عدنان.

- ولهذا قال: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]، أنا حينما أدعوكم إلى الله لا أطلب منكم أجرًا، ولا أطلب منكم أن تدفعوا مال، ولا شئ، فقط أنا أدعوكم وأقول لكم إني لكم نذير، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

- قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "لم يكن بطن من قريش، إلا ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيهم قرابة"، وهذا صحيح، لكن القرابة درجات، كما هو معلوم، فكل ما نزل الجد، صارت القرابة أكثر.
- ثم قال -رحمه الله-: "وهو صفوة الله منهم". أي من قريش، ثم ساق حديث واثلة بن الأصقع الذي ذكرته قبل قليل، **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»**.
- ثم نظَّر بمسألة أخرى، قال: **"وكذلك بنو إسرائيل أنبيائهم وغيرهم يجتمعون معهم في إبراهيم الخليل -عليه السَّلام-".**
- إذن العرب يلتقون عند عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل، وبنو إسرائيل أنبيائهم وغير أنبيائهم يلتقون عند إسرائيل الذي هو يعقوب -عليه السَّلام- إسحاق بن إبراهيم -عليه السَّلام.

إذن نستطيع أن نقول إن العرب وبنو إسرائيل يلتقون عند الخليل -عليه السَّلام- فهو أبو الأمتين جميعًا، وهذا ما يعبِّر عنه بعض الناس بـ (أبناء العم)، من هذه الجهة، بين العرب وبين الروم، وبنو إسرائيل الذين ينتسب إليهم كثير من النصارى المعاصرين.

- قال: إبراهيم الخليل الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهكذا أمر الله تعالى بني إسرائيل على لسان موسى -عليه السَّلام- وهو في التوراة، كما ذكره غير واحد من العلماء ممن جمع بشارات الأنبياء به -صلى الله عليه وسلم- أن الله قال لهم ما معناه: "سأقيم لكم من أولاد أخيكم -من هو أخوهم؟ إسماعيل- نبيًا كلكم يسمع له، وأجعله عظيمًا جدًّا".
- وسبحان الله انظر ماذا ابن كثير! قال: **"ولم يُولد من بني إسماعيل أعظم من محمد -صلى الله عليه وسلم- بل لم يولد من بني آدم أحد ولا يولد إلى قيام الساعة أعظم منه -صلى الله عليه وسلم- فقد صح عنه أنه قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه من الأنبياء تحت لوائي»، وصح عنه أنه قال: «سأقوم مقامًا يرغب إليَّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم»".**
- **ما هذا المقام؟** المقام المحمود، الذي وعده الله، وهو الشفاعة العظمى، الذي يشفع في الخلائق كلهم ليريحهم الله بالفصل بينهم من مقام المحشر.
- والشاهد من أن الخلق إذا بلغ بهم الكرب المبلغ العظيم، جاءوا إلى آدم، يقولون: يا آدم، أنت أبونا، أبو البشر، اشفع لنا عند ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: نفسي نفسي، إني أكلت من شجرة نهيت عنها، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوح، فيقولون: يا نوح، أنت أول رسل الله لأهل الأرض، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إني قد دعوت دعوة لم أأمر بها، قال: اذهبوا إلى إبراهيم الخليل، -خليل الله، اصطفاه الله عز وجل وذكر شيئًا من مناقبه- ثم جاءوا إلى إبراهيم، فقال: إني كذبت ثلاث كذبات، وهن كلهن في ذات الله -عز وجل-، كما قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم.
- فيقول: اذهبوا إلى موسى، نبي كلَّمه الله ؛ يعني ابتداءً، يقصد أن أول ما نزل عليه الوحي ليس عن طريق جبريل كغيره من الأنبياء، بل الله كلمه مباشرة، وهذا معنى قولهم: إن موسى كليم الرحمن، وإلا الله كلم محمد -عليه الصَّلاة والسَّلام-، لكن لم يكلم الله نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلا بعد أن نزل عليه الوحي عن

طريق جبريل، بخلاف موسى -هذه سبب تسميته كليم الرحمن- أنه هو النَّبيُّ الوحيد الذي ابتدأت نبوته بكلام الله له مباشرة، ثم بعد ذلك نزل جبريل، فهذه ميزته -عليه الصَّلاة والسَّلام.

- موسى يقول: إني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فلا يذكر ذنبًا، لكنه يقول: نفسي نفسي، لكن اذهبوا إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- نبي ختم الله به الرسالات، وذكر شيئًا من مناقبه، قال: فآتي فأسجد تحت العرش، فأدعو الله -عز وجل- بمحامد لا أحصيها الآن -يعني لا أعبر عنها الآن لا أعرفها- الله يفتحها علي في ذلك المقام من الثناء على الله -جل وعلا-، ثم يُقال له: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع.
- فيأذن الله -عز وجل- بحساب الخلق، وينقسمون بعد ذلك فريق في الجنة وفريق في السعير، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يكون مآلهم إلى جنات النعيم.
- انتقل بعد ذلك المؤلف -رحمه الله- فقال: **"فصل، وهذا الفصل في ولادته ورضاعته، ونشأته صلوات الله وسلامه عليه".**
- سرد ابن كثير الأقوال في وقت ولاته صلى الله عليه وسلم وهنا في ولادته مواضع اتفاق واختلاف، فسأذكر مواضع الاتفاق، ثم أذكر مواضع الاختلاف.
- **فحصل الاتفاق في ثلاث نقاط:**
  - ❖ **أولًا:** اتفق العلماء على أنه وُلِد عام الفيل.
  - ❖ **ثانياً:** اتفق العلماء على أنه ولد يوم الاثنين، وهذا أخبر عنه -صلى الله عليه وسلم- بنفسه، قال لما سئل لماذا تصوم يوم الاثنين؟ قال: **«ذاك يوم ولدت فيه».**
  - ❖ **ثالثًا:** أنه -صلى الله عليه وسلم- ولد في ربيع الأول، وهذا الموضع الثالث حُكي فيه الاتفاق، وحُكي فيه الاختلاف، لكن الخلاف فيه شاذ -وهو أنه ولد في غير ربيع الأول- هذا يكاد يكون شاذًا، ولهذا خليفة بن خياط وغيره من العلماء حكوا الاتفاق على ما ذكرت، أنه ولد أولًا عام الفيل، ويوم الاثنين، هذا ثابت في الصحيح، وكذلك ربيع الأول، هذه مواضع الاتفاق.
- **ما هي مواضع الاختلاف في ولادته؟**

يقول: **"قيل ولد -صلى الله عليه وسلم- يوم الاثنين لليلتين، هذا قول، يعني ولد في الليلة الثانية، وقيل: في ثمانية ربيع، وقيل في عشرة ربيع، وقيل اثنتي عشرة منه، قال الزبير بن بكار: ولد في رمضان، وهو شاذ، هذا الذي قلت لكم قبل قليل، شاذ، والصواب أنه ولد في ربيع الأول".**

- **ما هو أقرب الأقوال؟**

أقرب الأقوال أنه ولد ما بين التاسع إلى الثاني عشر من ربيع الأول، أما الجزم والقطع أنه يوم اثنا عشر ربيع، فهذا لا يسنده الدليل، بل هو إلى التاسع أقرب.

- لو قال قائل: هب أننا تأكدنا أن ولادته في يوم اثنا عشر، أو يوم تسعة، هل يدل هذا على صحة ما يفعله الذين يحتفلون بالمولد؟

الجواب: لا، هذا لا علاقة له بالتاريخ، لكن نحن نقول: إن من المؤاخذات العلمية على الذين يحتفلون بالمولد، أنهم استندوا على شئ غير مقطوع به وغير مجزوم به.

- ثم انتقل -رحمه الله- إلى معلومة أخرى تتعلق بنشأته -صلوات ربي وسلامه عليه- قال: **"مات أبوه وهو حَمل، وقيل بعد ولاته بأشهر، وقيل بسنة، وقيل بسنتين، قال: والمشهور الأول".**
- ما هو الأول؟ أنه مات وأمه حامل به، الله -عز وجل- قال له في كتابه: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ [الضحى: 6]، ما الحكمة من نشأة نبينا -صلى الله عليه وسلم- على اليتم؟ مع أن الطفل الصغير في حاجة في أوائل حياته إلى من يكون له عضد وسند إلى آخره، فنقول: الله تعالى لا يقدِّر شيئًا إلا لحكمة، وفيما يتعلق بهؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله -عز وجل- منذ أن كانوا نُطَفًا؛ لأن الله يقول في أواخر سورة الحج: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: 75]، فما الحكمة؟
- لذلك حِكَم، **لكن نشير إلى نقطتين أساسيتين:**
  - ❑ **الأولى:** حتى لا يتوهم أحد، أو يظن ظان، أن هذا الرجل يدعو إلى مجد لأبيه الذي أدركه، أو رباه، أو له نعمة عليه.
  - ❑ **الثانية:** حتى لا يؤثر أبوه عليه، أي حتى لا يُحرج النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- مما قد يقع من مصادمات بينه وبين أبيه، كما وقع بين إبراهيم وأبيه، فماذا سيقولون الناس؟ يقولون: هذا نبي خالف أباه، وهم قد سفهاء قريش ماذا قالوا؟ قالوا: جاء هذا النَّبيُّ فسفَّه آلهتنا، وفرَّق بين أقاربنا. طيب؛ لو كان أبوه حيًّا وخالف أباه، قالوا: لو كان فيه خير لأطاع أباه، ولصار على دين أبيه، أليس كذلك؟ فكان من الحكم أن يكون يتيمًا -عليه الصَّلاة والسَّلام.
  - ❑ **الثالثة:** أن يكون -صلى الله عليه وسلم- قدوة وسَلوة لكل يتيم مسلم في العالم، لنقول: إن العبرة ليست بنقص البدايات وإنما بكمال النهايات، كل يتيم يراني يسمع كلامي، أو يتيمة لا تحزن ولا تقلق، رسولك -صلى الله عليه وسلم- الرجل الأول في العالم، بل في التاريخ، كان يتيمًا، فما ضره ذلك.
- **متى يكون اليتيم متضررًا؟** إذا نُزع عنه إيواء الله له، ولهذا الله تعالى امتن على نبيه فقال: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ [الضحى: 6]، إذا آواك الله وليطردك كل الخلق لا تخاف، وإذا طردك الله من رحمته -نعوذ بالله من ذلك- فإنه والله لو آواه كل الخلق، فلا خير فيه، ولهذا تجد من الأيتام -وهذا شئ رأيناه في الواقع- من نشأ نشأة صالحة، ويكون بارًا بأبيه الذي لم يره، بالدعاء له، والتصدق عنه، والسِّيرة الحسنة، إلى غير ذلك، ويكون بارًا بأمه التي ربته مثلًا، ونجد أناس منعمين بين آباء وأمهات وخدم وحشم وأموال، فيخرجون سيئ الأخلاق.
- ثم انتقل -رحمه الله تعالى- إلى مسألة أخرى، تتعلق بنشأته فقال: **"واسترضع له في بني سعد، فأرضعته حليمة السعدية، كما روينا ذلك بإسناد صحيح، وأقام عندها في بني سعد نحوا من أربع سنين، وشُقَّ عن فؤاده هناك، فردته إلى أمه، فخرجت به أمه إلى المدينة تزور أخواله، فتوفيت بالأبواء، وهي راجعة إلى مكة، وله من العمر ست سنين، وثلاثة أشهر، وعشرة أيام، وقيل بل أربع، وقد روى مسلم في صحيحه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما مرَّ بالأبواء وهو ذاهب إلى مكة عام الفتح استأذن ربه في زيارة قبر أمه، فأذن له، فبكى وأبكى من حوله، وكان معه ألف مقنَّع يعني بالحديد".**

- **من الحكم في الاسترضاع في البادية**

✓ أولًا: قوة اللغة، وتنوع المفردات، صحيح أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- عربي فصيح، وهو أفصح من تكلم، وهو في بيئة عربية فصيحة، لكن ينتقل من بيئة إلى بيئة، فيجمع محاسن القبائل، من جهة اللغة.

✓ ثانيًا: بالتجربة، وهذا على مدار التاريخ، ويقرره علماء الاجتماع، أن أجواء البوادي أنفع من أجواء المدن، خصوصًا في الزمن السابق ، أما الآن على الأقل في بلادنا مثلًا البوادي كالمدن تقريبًا، المدن الصغيرة والبوادي متقاربة مع البنيان والسيارات وشئ من هذا القبيل، لكن سابقًا كان الهواء أطيب، والمرعى، والأكل، لم يكن مختلطًا بأي شئ من الأشياء المؤثرة.

✓ ثالثًا: من الحكم -والله تعالى أعلم- أن يتدرب الطفل في صغره على الاعتماد على نفسه، بخلاف من يكون في المدن، في الغالب أنه يُخدم بإماء، يُخدم بجواري، يُخدم بخدم، وشئ من هذا القبيل، خاصة إذا كان من قوم ذوي مال وجاه، كما هو حال قريش، وأسرة النَّبيّ -عليه الصَّلاة والسَّلام.

✓ رابعًا: يستفيدون استقامة اللسان، والسَّلامة من اللحن، الذي قد يتأثر به بعض العرب من احتكاكهم بالأعاجم، فإنكم تعرفون أن قريشًا لها رحلتان في العام، رحلة الشتاء والصيف، وهذا يترتب عليه خصوصًا في الشام اللقاء بالروم، هذا التلاقي بلا شك أنه سيؤثر بعض الشئ، على الثقافة، على اللغة ونحو ذلك، وإن كان العرب بالمناسبة كما قرر ذلك العلامة ابن عاشور في كتابه "أليس الصبح بقريب"، كانوا من أحرص الناس على صيانة ألسنة أولادهم، قد يتأثرون ببعض الثقافات صحيح، لكن في مقام اللسان لا، يكونون صارمين في هذا الباب، ولهذا اللحن لم يطرأ في الأمة، إلا بعد دخول غير العرب في الإسلام.

- النقطة الثانية في ما يتعلق ببقائه هناك: هو قرابة أربع سنوات بقي، قال: فخرجت به أمه إلى المدينة، تزور أخواله هناك، أخواله من هم؟ بنو زهرة، وبنو زهرة من قريش، ولهذا في حديثه لسعد بن أبي وقاص، وهو من بني زهرة، كان يقول: "يا خال رسول الله"، وهذه على عادة العرب في ندائهم من كان من أسرة أمهم، أن يقول: هذا خالي، وإن لم يكن أخًا لأمه مباشرة، لكن باعتبار التقاء النسبة بين الأم وبين هذا الرجل.
- يقول: **"ومرَّ بالأبواء"**؛ ثم ذكر رواية مسلم.
- أود أن أنبيه فقط الإخوة والأخوات الذين يتابعوننا، أن الحديث في صحيح مسلم توقف عند قوله: "**استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له** "، فقط أما زيادة "**فبكى وأبكى من حوله، وكان معه ألف مقنَّع**" ، فهذه ليست في صحيح مسلم.
- وفي زيارته -صلى الله عليه وسلم- لقبر أمه ، دليل على عظمة هذا الدين، ما وجه العظمة؟ الذي في صحيح مسلم "**استأذن ربه أن يزور أمه فأذن، واستأذنه في أن يستغفر لها فلم يأذن له**"؛ لأنها ماتت على غير الإسلام، لاحظ العظمة في هذا الدين، ما هي العظمة؟
- الشرع لا يصادم الفِطر، هذه أمه، ولو كانت حية لأُمر ببرِّها ولو كانت مشركة، فالشرع لا ينهى عن زيارة قبر المشرك إذا كان قريبًا، لكن ينهى عن الاستغفار فقط. لماذا؟

- لأن الله قال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113]، وهذا من المعاني العظيمة التي في الحقيقة تدل على ملاقاة هذا الدين العظيم للفطرة، فالزيارة ليست ممنوعة ، لكن الدعاء ممنوع، لماذا؟ لأنك إذا دعوت بالرحمة، فقد اعتديت على حق الله -عز وجل- الذي قال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: 72] إلى آخره، و ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ في الآية السابقة، وهذا معنى عظيم جدًّا.

والأبواء: هي قرية مازالت موجودة، ومعروفة بهذا الاسم على طريق المدينة، خصوصًا في الطريق القديم قبل الطريق السريع، هي أقرب إلى الطريق القديم.

- قال: "فلما ماتت أمه، حضنته أم أيمن، وهي مولاته". وهذا من التفسير العملي لقوله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: 6]، فهذا إذن من معاني قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.
- يقول: "وهي مولاته، ورثها من أبيه". يعني هي في الأصل كانت عند عبد الله، تعرفون العبيد الذين يُباعون ويُشترون من جملة المال، فينتقل إرثه إلى الأولاد، فورثها من أبيه.
- يقول: "وكفله جده عبد المطلب". وهذا من أيضًا رعاية الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، أن يسَّر له حاضنة، فالطفل بحاجة في صغره إلى حنان، بحاجة إلى إرضاع وغير ذلك، لا يكفي فقط أن يُطعم ويُشرب، وهذا ينبغي أن ينتبه له من شرَّفهم الله -عز وجل- بكفالة الأيتام، أو من ابتلي من الأمهات بموت زوجها وولدها صغير، أن تنتبه لهذا؛ الولد له حاجة إلى الحنان وإلى الرحمة، وإلى الضَّم والتقبيل، والكلمة الطيبة، كما له حاجة في الطعام والشراب، فالطفل بشر بحاجة إلى أشياء حسية، وبحاجة إلى أشياء معنوية، وبهذا يتكامل نموه.
- قال: "وكفله، فلما بلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العمر ثماني سنين، توفي جده". وهذا من البلاء بلا شك، إذ يتتابع عليه هذا العقد، أبوه، ثم أمه، ثم جده، فيكون هذا من البلاء، لكن كل هذا من صناعة الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- حتى يعتاد على المشاق والأهوال، ولهذا تجد الذين يتربون في محاضن مترفة، لا يريدون لولدهم أن تراه الشمس، ولا يضربه الهواء، يخرج مترفًا ناعمًا لا يمكن أن تُسند إليه أي عمل، ولهذا الترف لم يُذكر في القرآن إلا مذمومًا، ولا يصلح أن تُربى عليه الأجيال.
- ولهذا أقول للإخوة والأخوات من عندهم أبناء وبنات سواء كانوا أيتام أو غير أيتام: احذروا من التربية على الترف؛ لأنها تربية تؤثر سلبًا في المستقبل، فلا يستطيع الإنسان أن يتحمل المسئوليات، ولا يستطيع أن يقوم الإنسان أن يقوم بالأعباء التي تُنتظر من مثله.

ولهذا أقول: كان من صنع الله واختياره لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن مر بهذه الشدائد بهذا التدرج.

- ثم قال: "وأوصى به -أي الجد عبد المطلب- إلى عمه أبي طالب، عم النَّبِيّ -عليه الصَّلاة والسَّلام-، لأنه كان شقيق عبد الله فكفله، وحاطه أتم حياطة، ونصره حين بعثه الله أعز نصر، مع أنه كان مستمرًا على الشرك إلى أن مات، فخفف الله بذلك من عذابه كما صح الحديث بذلك".
- وفي هذا المقطع فائدة وهي: توافق ما ذكره الله -عز وجل- في قصة شعيب ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: 91]، على القولين في الآية: شتمناك، أو رميناك بالحجارة. وهذا ذكره العلامة السعدي من فوائد قصة

شعيب أن الله -عز وجل- قد يهيئ للداعية الصالح المسلم قومًا ينصرونه ولو كانوا على غير منهجه، بل ولا على غير دينه، بسبب العصبة القبلية.

- إذن كما قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي في البخاري: **«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**، وكذلك قد يؤيد بالرجل الكافر.
- لاحظوا النجاشي حينما آوى الصحابة كما سيأتينا في قصة الحبشة، نصرهم ودافع عنهم، ولم يكن حينها مسلمًا.
- إذن من الحكمة والعقل عند الداعية إلى الله -عز وجل- إذا كان في بيئة يغلب فيها الكفر، ألا يصادم ما استطاع وهو يستطيع أن يُبلِّغ، فإن كان له أقارب ليسوا على دينه واستطاع أن يوظِّفهم لخدمة الدعوة إلى الله -عز وجل- فليفعل.
- ثم قال: **"فخفف الله عنه بذلك"**. وأقول أيُّها الإخوة والأخوات، إذا كان الله -عز وجل- خفف عن أبي طالب العذاب لأنه دافع عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ونصره، هل تظنون أن الله -عز وجل- يخذل مسلمًا دافع عن سنة النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أو نصرها؟!
- لا والله، حُسن الظن بالله -عز وجل- يقول: إن مثل هؤلاء منصورون، وسيدافع الله عنهم، فإذا كان أبو طالب يحامي وهو كافر، عصبة أو عصبية فما الظن بعالم، أو داعية، أو مسلم، يدافع عن السُّنَّة، ويحامي عن السُّنَّة، وينشر السُّنَّة! لا يخذله الله، هذا سيخفف الله عنه، ويُرجى أن يكون في الدرجات العالية من الجنة.
- ثم انتقل المؤلف -رحمه الله- إلى مسألة وقصة مشهورة، وهي قوله: **"فخرج به عمه إلى الشام في تجارة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وذلك من تمام لطفه به -أي لطف العم، لأنه يريد أن يعوده على أمور الرجال وتحمل المشاق ونحو ذلك، لعدم من يقوم به إذا تركه بمكة، لأنه صغير مازال- فرأى هو وأصحابه -أي العم- ممن خرج معه إلى الشام من الآيات فيه -صلى الله عليه وسلم- ما زاد عمه في الوصاية به، والحرص عليه -يعني تنبأ له بمستقبل زاهر وعظيم- كما رواه الترمذي في جامعه بإسناد رجاله كلهم ثقات، من تظليل الغمامة له -يعني كان فوقه غمامة تظله من الشمس الحارة- وميل الشجرة عليه بظلها -لما جلسوا في ظل شجرة- وتبشير بحيرة الراهب به، بحيرة هذا ويقال جرجيس، أمره لعمه بالرجوع به لئلا يراه اليهود، فيرمونه بسوء".**
- قال ابن كثير، عن القصة؟ المؤرخون والكتاب في السير بين طرفي نقيض، بعضهم يقول: قصة بحيرة كلها منكرة ولا تصح أصلًا، وبعضهم يثبتها برُمتها، والوسط هو ما اختاره الحافظ ابن كثير، حيث قال:
- "هنا عبارة دقيقة: والحديث له أصل محفوظ، وفيه زيادات أُخر"، يعني يقول لك ابن كثير: أصل القصة ثابت، وهو ذهابه -صلى الله عليه وسلم- إلى الشام، لكن فيها زيادات أنه لقي أبا بكر وكان معه بلال، كل هذه لا أصل لها، وأنكرها الذهبي -رحمه الله- وغيره من أهل العلم، وهذا نموذج من نماذج تحقيقات الحافظ ابن كثير في هذا الكتاب -رحمه الله-، بهذه العبارة المختصرة.
- ثم ذكر خروجه مرة ثانية إلى الشام في التجارة، ليضارب بمال لخديجة، ثم بعد تزوجته -رضوان الله تعالى عليها.